وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

إن محمداً هو أعظم عظماء التاريخ
ول ديورانت

الفصل الثاني:
تساؤلات حول سلوك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

رسالة من رسائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم

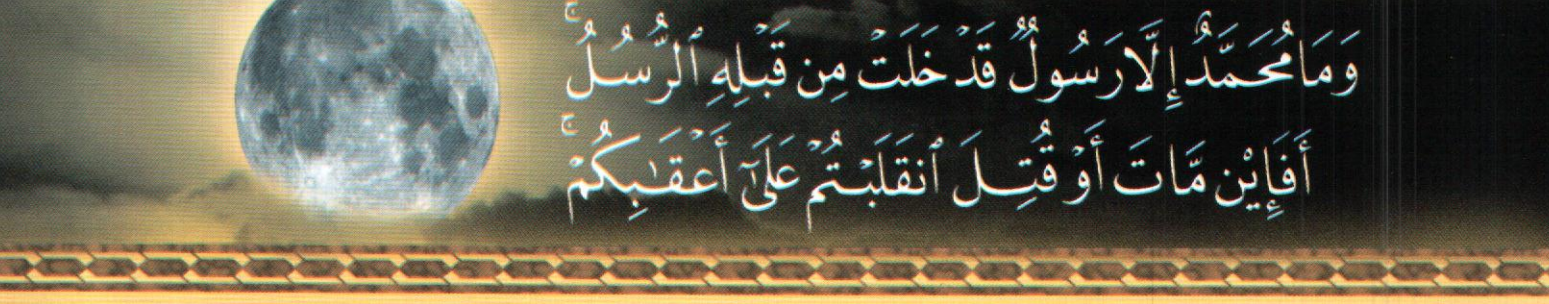

وضاعة النسب لا يرفعها إلا قدر عالٍ من الهمة والعمل الشريف

الخط العام الذي تتحرك به السيرة قسمه المؤرخون إلى قسمين: القسم المكي والقسم المدني، والأول لا نرى فيه الظروف الحياتية التي فرضت على الرسول ﷺ قبل زواجه بخديجة إلا بصورة تخلو من الكثير من التفاصيل الضرورية لفهم شخصيته ﷺ، لكننا نستطيع أن نؤكد أنه كان بنظر كل الناس في تلك الفترة رجلاً كريماً بكل معنى الكلمة، ثم أصبح غنياً بزواجه من «خديجة» رضي الله عنها كما كان ينحدر من قبيلة ذات نسب مرموق، ومن أكرم فروعها القريشية، فهو لم يكن لا بحاجة إلى المال ولا إلى السلطة والقوة، كما أنه ﷺ من فرع سدان الكعبة فلا تنقصه السلطة الدينية أيضاً، لأن تلك السلطة كانت هي الحاكم الفعلي لمكة المكرمة، ورغم ذلك كانت محاولته لإدخال دين جديد كناية عن الضرب بالعمق لصلب كل هذه الامتيازات، فجلب على نفسه عداء مجتمعه وحتى أقربائه، والخوف من كل العرب على مركز عقائدهم المتوارث والذي تجسده عباداتهم في الكعبة.

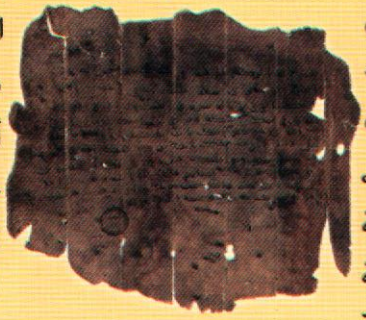

فما الذي كان سيناله لنفسه من كل هذا الأمر الذي قام به ومن كل هذه التضحيات التي قدمها؟! والتي لم يظهر منها أي نجاح لأعوام مليئة طويلة بالاضطهاد له ولأتباعه والهزء والسخرية مما يقول، والتي انتهت بهجرته بعد تهديد حياته من بلده، فلماذا أصر كل هذه السنين على التضحية بكل ما يملك من امتيازات دنيوية؟! في الوقت الذي كان يعرف أن عمره قد تقدم لبناء أي امتيازات جديدة أو حتى التمتع بها.

لا يوجد إذاً أي دافع دنيوي لما قام به الرسول ﷺ ولا أي فائدة مادية. ولنقف قليلا .

هناك رؤى للرسول ﷺ كان يراها، نتيجة اختلائه في غار حراء، وتحنثه وصيامه وصلاته في خلوته، وتأملاته نحو المطلق، فاتصل بالوحي، وقد كان يؤمن بشكل مطلق بحقيقة هذه الرؤى بعد أن شك بها أول ما جاءته وأكدتها له خديجة المحبة رضي الله عنها، و«ورقة بن نوفل».

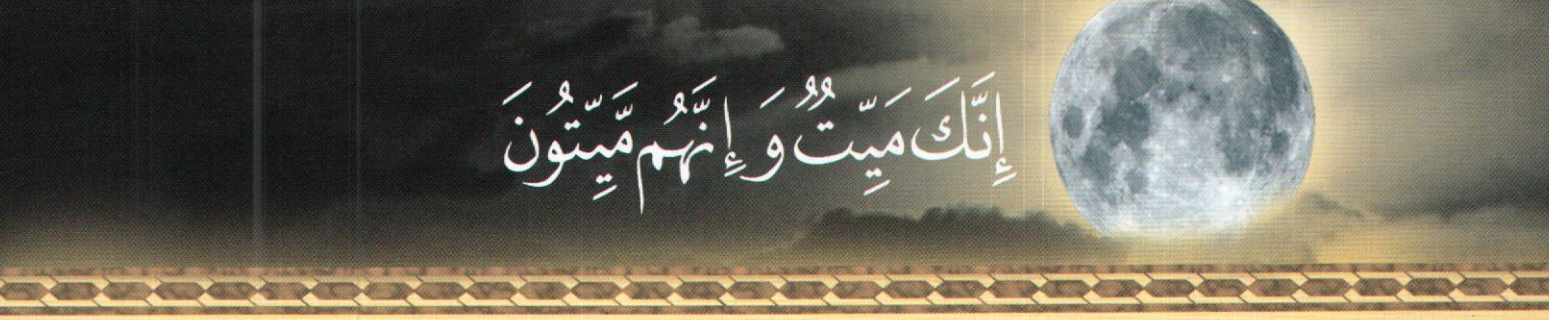

كن كحبيبك محمد صلى الله عليه وآله وسلم رجل رسالة بامتياز

وحين اقتنع هو قبل سواه بمهمته الإلهية ذهب لتبليغها مهما كانت التضحيات، لأنه شعر بأنه نبي مرسل يتعرض للناموس الأكبر الذي ينزل على الأنبياء والرسل بجهد يصيب الجسد وقول ثقيل يخرج منه، ليشكل رسالة نبوية.

وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من يوم نزول الوحي عليه في مكة إلى يوم مغادرته لها، لا يتصرف على هدي المنطق الإنساني، بل بناء على ما تمليه عليه تعليمات هذا الوحي حتى وإن كانت غير واضحة النتائج القريبة، وهذا لا يبرره إلا عمق اقتناعه بصحة ما يراه من الوحي، قبل إقناع الآخرين بذلك، وإذا قال بعض المؤرخين إن ما كان يتعرض له هو أحلام يقظة نتيجة مرض جسدي بحثوا عنه في كل الاتهامات الممكنة، فالجواب لماذا لا ينتج نفس هذا المرض أو ذاك عند كل الناس الذين أصيبوا به قبل وبعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قرآناً؟! ونحن نراه عبر التاريخ يتعرض بكل لحظة إلى أشد المعاناة في كل لحظة من لحظات حياته صلى الله عليه وآله وسلم ليعطي هذه الثمرة - الذكية - القرآن الكريم للناس!!

فإذا قيل إنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتصرف حتى لحظة مغادرته لمكة تحت تأثير وهم أصابه، فإن القناعة المطلقة بهذا الوهم لديه لم تكن عديمة الثمرات عبثية النتائج، حتى ولو بدت تراجيدية عليه وعلى مسيرة حياته الشخصية، فإصلاحه الديني لانحراف الناس عن ملة «إبراهيم عليه السلام» لا يمكن أن تحركه روح وثابة فقط تضمن يقين النجاح في النهاية، قبل وجود أي قبس يدل على مثل هذا النجاح، إزاء تقاليد وثنية وحشية وعنيفة وكل ما فيها لا يسمح بزعزعتها عن ضلالاتها، فتنقية العبادة للاتجاه بالناس نحو فهم معنى الإله الواحد على بساطة هذا المطلب ظاهرياً، من أصعب ما يمكن أن يواجه به أي إنسان عناد التقاليد الراسخة بالشرك، الأقرب إلى الفهم الإنساني المشخص للألوهية، والمدعوم بكل عتو التقاليد التي

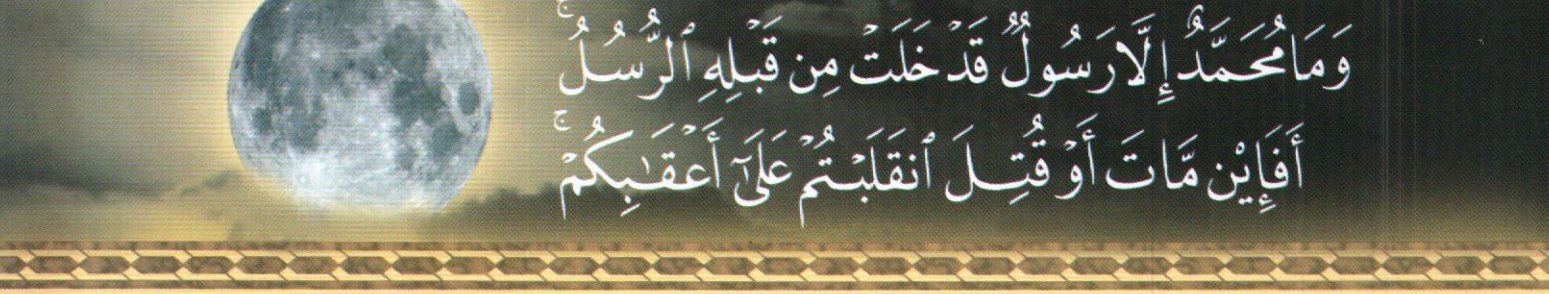

كن حكيماً في كلمتك وتذكر أن الرسول ﷺ واجه عناد التقاليد الراسخة بالحكمة والإقناع

ترسخه، فمن السهل دوماً على الناس الانحراف نحو الشرك حتى بعد «محمد ﷺ»، ومن الصعب كل الصعب فهم معنى الإله الواحد، تحقيق أي صلة غير ملموسة معه في تعاليه، والذي أراد الرسول ﷺ إيصال الناس له.

وهذا دليل على أن «الرسول ﷺ» قد شرب بعمق من نفس النبع الذي شرب منه إخوته الأنبياء موسى الكليم والمسيح بن مريم عليه السلام وتجاوزهما بالرد على عناد الشرك بنفس المنطق الذي يفهم به هذا العناد، منطق القوة، التي وجدها في نفسه ﷺ وفي أتباعه، ولم يجدها «المسيح عليه السلام» في أتباعه، ولم يساعده قصر باع حياته على تحقيقها بنفسه.

هكذا يمكن فهم الرسول ﷺ في لحظات اضطهاده في مكة، وما أتبعها من تغيرات في مسار دعوته الثاني حين وصل بشكل إعجازي إلى المدينة، حيث كان ملاذاً له في بادئ الأمر ثم وجد فيها قوة دنيوية قادرة على الحوار بمنطق الأمر الواقع والقوة الذي تفهم به العرب، فلم يعد في أعينهم مجرد نبي يدلهم على معنى الألوهية الصحيح هناك، بل زعيماً من أقوى زعماء العرب وذا قوة متنامية، تسمح للدوافع الأرضية أن تخدم أهداف السماء، بمعزل عن الحماس الشخصي لأي إلهام.

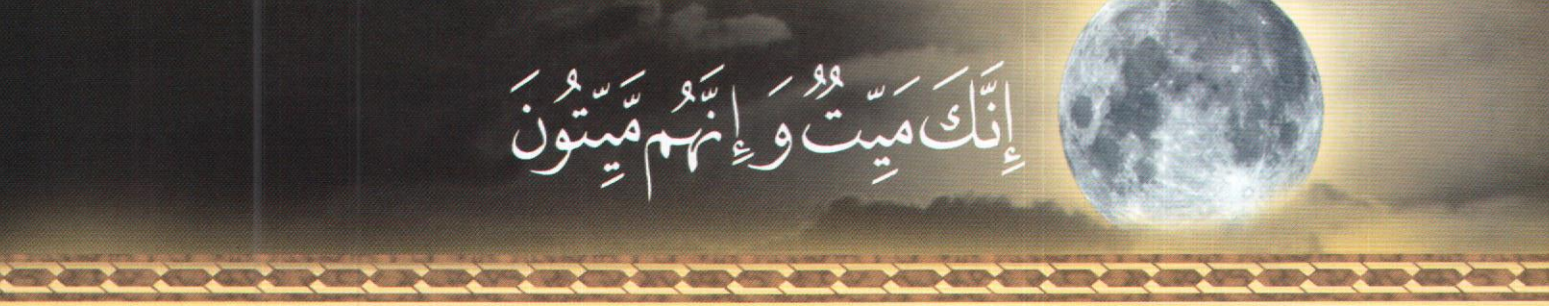

الجانب الجهادي في شخصية الرسول صلى الله عليه وآله

على الإلمام التاريخي الدقيق تبنى الأحكام حول شخصية الرسول صلى الله عليه وآله، والذين يدّعون أن الجانب الحربي في شخصيته صلى الله عليه وآله كان مكبوتاً في مكة، لتلده فقط ظروف القوة التي حصل عليها في المدينة، يريدون أن يؤكدوا أن الدين الإسلامي وليد الصدف لا التخطيط الإلهي المسبق المحكم، وأمثال هؤلاء نذكرهم بحادثة إسلام «عمر» رضي الله عنه: «حين دخل الرسول صلى الله عليه وآله إلى الحرم وعلى يمينه «حمزة» رضي الله عنه وعلى يساره «عمر» رضي الله عنه يحميانه وخلفهم أربعون من الصحابة... ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منهم أو التعدي على «الرسول صلى الله عليه وآله »... و«حمزة وعمر» رضي الله عنهما محيطان بالرسول كأسدين متوثبين فقدا شبلهما». فقد كان بالإمكان أن تكون هذه الحادثة أول معركة في الإسلام لو لم يظهر من قريش الخوف والتخاذل أمام بروز قوته صلى الله عليه وآله، فأربعون محارباً في ذاك العهد كان كناية عن كتيبة عسكرية يمكنها أن تحدث معركة.

كذلك كل أحاديثه الشريفة في أول دعوته صلى الله عليه وآله كانت تؤكد أن لو أطاعته قريش لخضعت لها كل العرب، وبهم تخضع طواغيت كل الدنيا وتسلم لله لا للجبروت والطغيان والقوة، وهو صلى الله عليه وآله في دعوته لبني «عبد المطلب» في أول دعوته أشار إليهم أنهم لو يؤازرونه لحصلوا على خير الدنيا والآخرة، ويريد لخلفائه الاستمرار في حمل رسالته لكل أمم الأرض، والشواهد لا تحصى على شخصية الرسول صلى الله عليه وآله الجهادية وهي شخصية لا تسعى إلى الحرب للحرب وإراقة الدماء بل لا تجد في الواقع القائم أي ملاذ لتجنب القوة إزاء القوة، وهذا الموقف الواقعي لم يستطع مؤرخو الغرب إلا وزنه بميزان الطوباوية القائمة على إدارة الخد الأيسر للصفعة على الأيمن، والتي لم يحصل التقيد

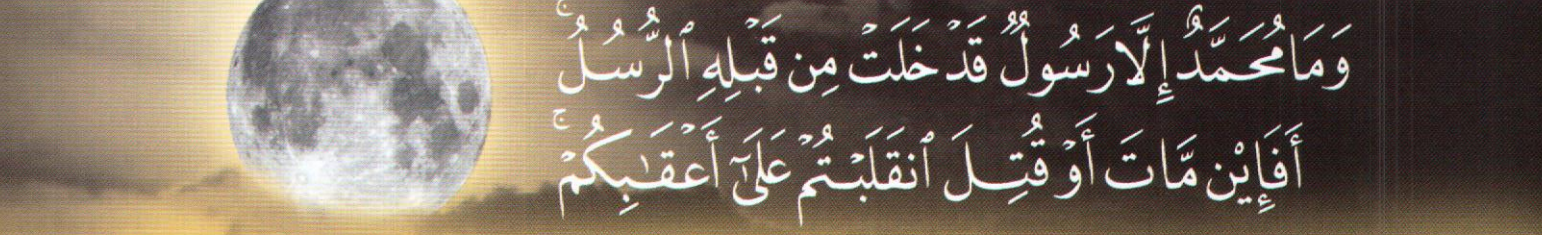

لم تكن شخصية الرسول ﷺ تسعى إلى الحرب من أجل الحرب وإراقة الدماء أو إكراه الناس بل كان يدفع ذلك كله كلما أمكن ذلك

بها إلا في سجون محاكم التفتيش، لذلك ادعوا أن شخصية الرسول ﷺ الحربية في المدينة من صنع الظروف لا التخطيط المسبق، وإلا لأقروا بعظمة النبوءة بالفتح عبر فرض الجهاد الإسلامي قبل تحققه، وأن تقرير هذا الأمر قبل حصوله من الرسول ﷺ لم يحصل، ولا يمكنه أن يحصل في تاريخ البشرية إلا مع محمد ﷺ.

ولدعم رأيهم المبتور هذا ذهبوا إلى الافتراء على الرسول ﷺ بأنه أصبح في المدينة أسير توسع عواطفه ورغباته الدنيوية، وعلى هذا النحو صار الوحي أداة يستخدمها للتغلب على الصعوبات التي تواجهه، مما يدفع إلى الشك بصدق هذا الوحي، وبالتالي فما قد نطق به على أنه كلام الله في المدينة هو كلامه الذي يعبر عن رغباته الخاصة في تسيير هذا الحدث أو ذاك لصالحه.

فمن عدم الإلمام بالتاريخ النبوي، أو إغفاله، ومن الخلفية الدوغمائية الطوباوية الثابتة في النظر إلى معنى الدين بمفهومه المسيحي فقط، إلى عدم الرغبة بالإقرار بنبوءته النبوية، وصل بعض المؤرخين الغربيين إلى أن الرسول ﷺ - وحاشاه - هو أول من زيف القرآن؟! وفي هذا أغرب أنواع الدس؟! التي تفتق عنها دعاة الفكر المنهجي في البحث في التاريخ.

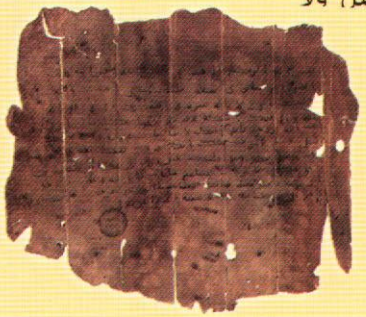

فمن مقدمات زائفة انطلقوا منها في فهم السيرة النبوية، إلى نتائج أزيف تغرق حتماً في زيف هذه المقدمات لتزيد بالتدليس والإبلاس!! نعم لم يكن عند الرسول ﷺ بعد ثلاث عشر سنة من الاضطهاد في مكة من ملجأ سوى الذي أرادهُ الله تعالى له في المدينة وكأول مسلم يستعيد جذوة الإسلام الأساسية في الأديان لمنزلة السابقة، والتي ما نزلت تلك الأديان إلا من أجلها، أسلم أمره إلى الله تعالى وهاجر، دون أن يطلعه الله تعالى على غيبه وما رتبه له من قدر، إلا

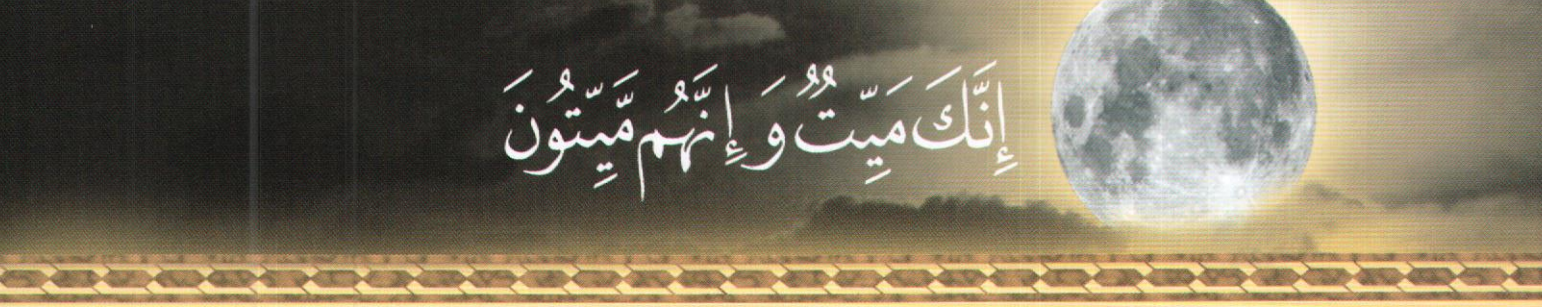

ربك عونك صادقه يكن معك ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً[٣] وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾

لم يكن جهاد الرسول يهدف التوسع الأعمى ، والسيطرة الغاشمة ، بل توعية شعوب الأرض بكلمات الله التي تعلي قدر الإنسان

بالثقة بقدر الله تعالى بشكل مطلق، فبدا بعين المؤرخ المدعي الموضوعية أنه قد خسر كل شيء، من ثروةٍ ومركز اجتماعي وحماية اجتماعية من أهله في موطنه، كما بدا حين وصل إلى المدينة أنه لا يعرف القوى الدنيوية التي ستتجاذبه، والإعجاز كل الإعجاز ثقته المطلقة بالله تعالى التي تحققت بأن كل هذه القوى لم تعمل إلا لصالحه، حتى تلك التي ناوأته تحت اسم ما عرف بالمنافقين أمثال «ابن أبي»، عبر كل المصالح القبلية المتضاربة، والتي كان نتاج تضاربها في كل حصيلته الأخيرة لمصلحة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وأكثر من ذلك وجه هذه القوى التي كانت تفتك ببعضها نحو الأخوة الإسلامية في إيمان واحد، وجعلها أهلاً لأن تحمل رسالة الإسلام إلى كل أمم الأرض، لا لهدف حربي توسعي يهدف إلى التوسع والسيطرة العمياء، بل لهدف جهادي يهدف إلى توعية شعوب الأرض بمعنى التوحيد ليرتفع بالفكر الإنساني إلى مصاف «الوعي» الجديرة بإنسانية الإنسان، وهذا ما يميز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كمجاهد أول يرتفع عن مجرد كونه مجرد عبقرية حربية كغيره من الفاتحين، الذين صاروا بعين التاريخ المنصف في نهاية كل مطاف مجرد سفاكي دماء، فالحماس الجهادي بتلك الروح المتوقدة التي أضاءها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أتباعه طغت على كل ما يمكن أن يتصوره أي تخطيط حربي لأشهر الفاتحين، أساسها الإيمان العميق بالقضاء والقدر لتحريك كل القوى في الإنسان لهدف الجهاد والامتناع عن حساب مدى الربح والخسارة بعد هذا التحريك، لا الاتكالية التي حادت بالتصور الإسلامي للقضاء والقدر عن الإسلام كما بدأ، نحو خنوع عدم المبادرة عند المسلمين في لحظات انحطاطهم التاريخي، فالقضاء والقدر كما فهمه المسلمون الأوائل هو عكس القدرية عند خلفهم من الخانعين، والفارق

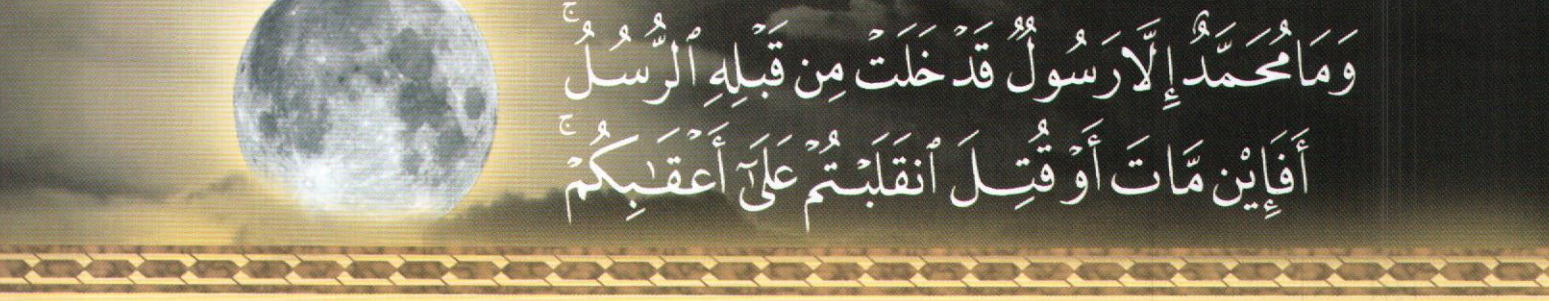

الإيمان يرفع الإنسان على كل الرغبات عدا الوصول إلى مرضاة الله

الهام بينهما هو حقيق أقصى قدرات الإنسان على المبادرة، على عكس عجز الاستكانة قبل أي فعل ، مما أنتج نتائج لا يمكن لأي حسابات عسكرية توقعها، وما «علي وعمر وخالد» رضي الله عنهم وسواهم من ذوي الروح الوثابة النارية في الاتجاه نحو الجهاد إلا من نتاج روح الإسلام هذه التي بثها الرسول ﷺ بهم بالثقة بالقدر، كما فعل هو لحظة هجرته عبر تحقيق أقصى قدرات وإمكانات جهد الجهاد، مما أطلق تلك القوى الهائلة نحو مشارق الأرض ومغاربها لرفع الفكر الإنساني من حدود مجرد القدرة على الالتفاف - الفكر - إلى حدود التعرف على المطلق - الوعي - وهذا التعرف هو أول خطوة نحو إدراك الإله الواحد المتعالي الذي ليس كمثله شيء، إدراكاً يرتفع بالإنسان نحو أهم صفة تميزه عن باقي المخلوقات ألا وهي صفة الوعي!!

ثمرة الجهاد هو: إيصال الناس إلى وعي الواحدية المطلقة تعالى عن كل شيء، وبهذا الوعي يرتفع الإنسان عن كل الرغبات عدا رغبة الوصول إلى مرضاة الله حيث هذا هو نعيم النعيم في كل خلد، لذلك لم يحرك النصر العسكري المذهل للرسول ﷺ ولا لأتباعه من بعده ممن صدقوا عهد الجهاد، أي فخار فيهم ول أي استعلاء كما لو كانوا يعملون لأي هدف أناني، ففي أوقات انتصاراته الكبرى ﷺ ظل على عهده في بساطة سلوكه ومظهره كما كان في أيام اضطهاده في مكة، وكأن شيئاً لم يتغير، وبعيداً عن كل مظاهر الرئاسة كان الرسول ﷺ يغضب إذا دخل غرفة وقام الناس تعظيماً له، أو يعظمون بعضهم بعضاً كما تفعل الأعاجم، لأنه إذا كان يريد أي سيطرة على الناس فالسيطرة الوحيدة التي يريد أن يراها عليهم هي سيطرة الإيمان، أما السلطة الأرضية التي صارت طوع إرادته، فقد استخدمها لأجل الدين فقط ولم يأخذ منها لنفسه شيئاً، وهو حين

ثق بربك وتوكل عليه سبحانه وتعالى ، ذلك هو القانون الأول

مات ﷺ لم يترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة، كذلك ثبت أنه ﷺ رفض أن يورث هذه السلطة حتى لآل بيته وأسرته.

وكل الأموال التي كانت تتدفق عليه من الجزية والزكاة ومغانم الحرب، كان ينفقها في سبيل مزيد من نشر الدعوة، وعلى المساكين وأبناء السبيل، إلى درجة أن خزينته كانت كثيراً ما تنضب من كل مال يدخلها على كثرته، وعن «عمر بن الحارث» أخي «جويرية بنت الحارث» زوجة الرسول ﷺ وعن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء»[1] نعم لم يوصِ بشيء لأنه أنكر ذاته، ولم ير في أي ذات أخرى ما لا يستحق الإنكار، وتلك هي معالم الشخصية النبوية الصادقة مع نفسها قبل صدقها مع الآخرين، وهذا من أوضح دلائل الصدق في نقل ما هو متحقق من يقينه للناس في ذاته أولاً ﷺ.

يمكن للمؤرخ أن يقدر بدقة وعدل شخصية «محمد ﷺ»، فيفسر لماذا رفض كل مظاهر التبجيل الأرضي والفوائد الشخصية بعد أن صارت كل قوى ومصادر المادة تحت تصرفه وبين يديه، فظلت روح الإلهام الإلهي التي تحلت بها روحه بعد الوحي منذ أول تعرضه له، فعّالة فيه بصورة مستمرة، لتعاودده دوماً وترفعه فوق كل المطالب المادية الأرضية، وفي الفترات التي تفصل نزول الوحي كانت الصلاة التي تعتبر أهم واجب في الإسلام، هي المعين على استمرارية تطهير الذات في شرعه وحث عليها المسلمين من بعده، فالثقة بالله وطلب العون منه وحده تعالى حين التعرض للمحن كانت معينه الوحيد

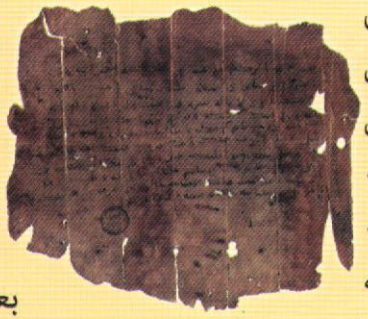

لم يدعِ النبي ﷺ معرفة الغيب، ولا أُذنَت هذه المعرفة لسواه، فعلى رحمة الله تعالى فقط أوقف كل آماله بالسعادة السماوية والأرضية، وقد أكد هذا «لعائشة» رضي الله عنها إذ سألت الرسول ﷺ في إحدى المناسبات متلهفة مستقصية عما إذا كان لا يدخل أحد

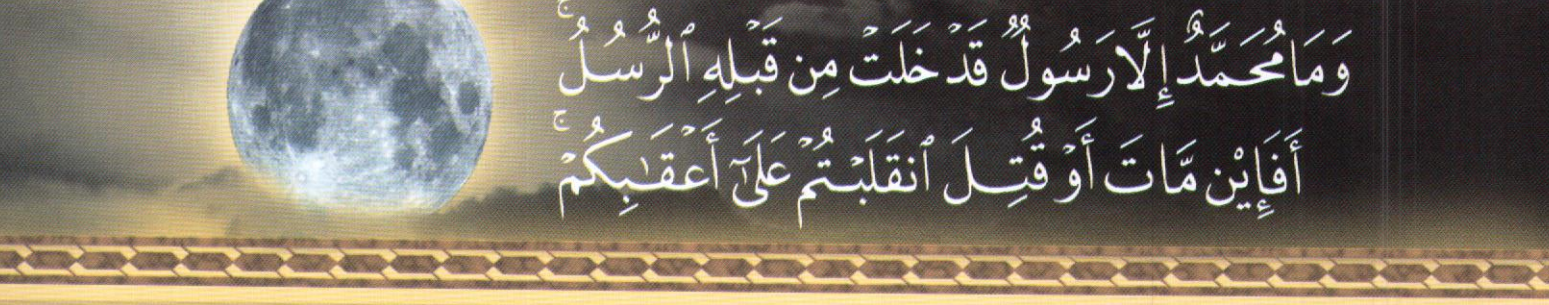

أحسن الظن بربك يكن معك

الجنة إلا برحمة من الله تعالى فقال وكان جوابه لها: أبداً لن يدخل الجنة أحد بدون رحمة من الله؟! فتساءلت بدورها ولا حتى رسول الله؟! فجاءها الجواب القاطع منه (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه لن يدخل الجنة إلا إذا غمره الله تعالى برحمته. فالثقة بالله والتوكل عليه قانون مارسه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في كل سلوك حياته، حتى إنه عندما أشرف على فراش موت طفله «إبراهيم» رضي الله عنه أسلم لإرادة الله تعالى كلية واضعاً هذا الإسلام فوق كل عواطفه الأبوية، على أمل الثقة المطلقة باللقاء الحتمي مع ابنه في جنة الخلد، فكان هذا عزاءهُ الوحيد في هذه الفاجعة، وحين نزل معه إلى القبر ليتفحص قبره بيديه الشريفتين، ظل على ثباته على هذا الأساس من أسس إيمانه الصريح الحق مؤكداً وحدانية الله تعالى التوكل عليه في كل المصائب، ومن خلال هذا التأكيد العملي يظهر لنا تأكيد آخر صريح بمهمته كرسول لله، وحتى في لحظات موته (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث لا يعود للإنسان أي مكان لأي مطلب مادي أرضي، ظل يعبر عن هذه القناعات نفسها التي تؤكد هذا الإيمان الصارخ المتين بمهمته النبوية، ألم تكن آخر كلماته كما سبق وأشرنا رافعاً بصره إلى السماء:

«فرفع بصره إلى السماء وقال:

في الرفيق الأعلى في الرفيق الأعلى»[٢]، وقبلها بقليل كان يؤكد لمن حوله ضرورة أن «لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله تعالى»[٣]، فقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) متأكداً من أنه سيلحق بالأنبياء والرسل وسيحشر معهم. وأخيراً نجد أنه من الصعب حتى على المنكرين لرسالته (صلى الله عليه وآله وسلم) أن ينكروا عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) صدق شعوره الذاتي فيها، ولا أن ينكروا سمو وصدق توجه القرآن الكريم وما يتضمنه من حكمة وشمولية كلية لكل زمان ومكان تأسر قارئه، ولا يمكنها أن تكون موجهة لغرض أو أغراض أرضية وأهداف نفعية فقط.

الحواشي

(١) ابن كثير ، ص٥٦٠.
(٢) ابن كثير، ص٤٧٤. وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، جـ٤، ص٦٥١.
(٣) المرجع السابق، ص٤٧٢.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ
فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ
وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ